

الرفيق عبده مرتضى الحسيني مناضلاً شيوعياً ومؤسساً لمكتبة خاصة من النوع النادر

تعرفت إلى الرفيق عبده مرتضى الحسيني في مطلع خمسينات القرن الماضي. وتابعت مسيرته، من خلال علاقة رفاقية وعلاقة صداقة أعتز بها، توطدت وامتدت على مدار العمر كله. بدأ حياته شيوعياً. وغادر الحياة، وهو أمين لانتمائه المبدئي هذا. اختلف مع قيادة الحزب الشيوعي في أواسط ستينات القرن الماضي، من دون أن يتخلّى عن انتمائه إلى الأهداف التي تأسس عليها الحزب. وكان هذا الاختلاف حقاً طبيعياً له، مثلما هو حق طبيعي لسواه من الشيوعيين. فالشيوعي، حين يختار هذا الانتماء إلى حزب شيوعي وإلى أفكار هذا الحزب، فإنه إنما يقرر ذلك بملء إرادته، وبوعي متقدّم وراقٍ، وبحرية إنسانية كاملة. هذا هو المبدأ، حتى وإن اختلفت الممارسة في التفاصيل. لقد كان عبده يرى، على الدوام، أنّ الحزب الشيوعي اللبناني، حين تأسس كضرورة وطنية وديمقراطية في لبنان، لم يكن، ولم يكن ممكناً له أن يكون من الناحية المبدئية، ملك أفراد مهما عظم شأنهم، من دون أن يعني ذلك التقليل من دور المؤسسين ومن دور كبار آخرين مثلهم في تاريخ الحزب. فالحزب، في نظر عبده، هو ملك الأجيال كلها التي تعاقبت في الانتماء إلى مبادئه وأفكاره وأهدافه على امتداد الأعوام والعقود التي تلت مرحلة التأسيس.

اختر عبده، تطابقاً مع الفكر العلمي التغييرى الذي انتمى إليه، أن يقيم، منذ وقت مبكر من عمره، صداقة حميمة مع الكتاب، اتخذت مع الزمن نكهة خاصة هي نكهة عبده مرتضى الحسيني في العلاقة مع الكتاب. اهتم باقتناء الكتاب، بوعي كامل منه لوظيفة الكتاب كمصدر للاغتناء مما يحتويه من الكنوز الثقافية، في تنوعه وفي تعدد مواضيعه. وقاده ذلك الاهتمام بالكتاب، على امتداد حياته، إلى اقتناء مكتبة هي من أغنى المكتبات الشخصية في لبنان، وربما في سائر البلدان العربية. وقد أدهشني، خلال زيارة قمت بها في عام ١٩٥٧ إلى مدينة دوشنبه، عاصمة جمهورية طاجكستان السوفياتية سابقاً، عندما سألتني شاعرها القومي عن شخص لبناني، هو عبده بالذات، أرسل إليه يطلب مساعدته في الحصول على مخطوطات إسلامية، كانت تضمها المكتبة الوطنية الطاجكية في أرشيفها للتاريخ الإسلامي. أفرحني السؤال. فأفضت في الحديث إلى الشاعر عن عبده. ثم أخبرت عبده لدى عودتي إلى لبنان بما حدث، وفرح كثيراً. وأطلعني على مشروعه الذي لم أكن أعرفه من قبل.

تكررت زياراتي إلى عبده وإلى مكتبته في مدينة الشمس، بعلبك. وأكثرنا من الحديث عن هذا المشروع الثقافي المميز. لكننا فشلنا، هو وأنا وآخرون من أصدقائه، في إيجاد مَنْ يحتضن هذا المشروع من أهل الثقافة في لبنان وفي العالم العربي، ممّن يملكون القدرة المالية، على القيام بذلك. وغادرتنا عبده، مليئاً بالحسرة، مؤكداً في وصيته، التي علينا أن نكون أوفياء لها، بأن تبقى مكتبته في بعلبك، وأن تبقى سيرته فيها، وفي كل كتاب ومخطوطة، عنوان وفاء لهذا المناضل الوطني، الشيوعي الانتماء بدون هوادة، والمنقف الديمقراطي، العاشق للثقافة، والملتزم بالكتاب. وكان المصدر الأساسي لعشقه للكتاب هو لكونه يحتضن بين دفتيه رموز الثقافة وكنوزها في عالمنا العربي، تلك التي تنتمي إلى عصرنا الحالي وتلك التي تعود في انتمائها إلى العصور القديمة